مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية — المجلد الثاني — رمضان ١٣٩٩ هـ
من ١١ الى ١٧ — ب ١٩٧٩ م

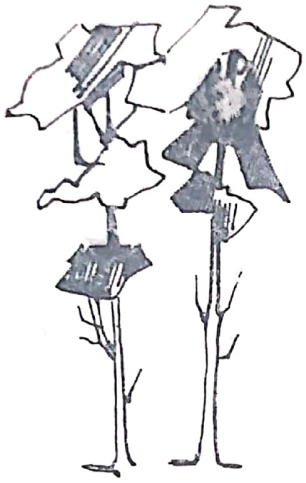

المسرح

الدكتور : محمود الخير
كلية الآداب

المسرحية فعل يا سيدي ، فعل ، وليست فلسفة مقيتة

بيراندلو ـ ست شخصيات تبحث عن مؤلف

ألا تذهب الى المسرح كأنما تتزين دون مرآة .
شوبنهاور

المسرح هو اللون والزي والموسيقى والكلمة ، هو الغموض والسحر والحركة.
تنسي وليامز

من المتعارف عليه ان القرن الخامس قبل الميلاد هو بداية العصر المسرحي في تاريخ الحضارة الاوروبية ومن المتفق عليه ايضاً ان اليونان نفسها كانت المركز الرئيسي للنشاطات المسرحية سواء في المأساة او الملهاة . ومن أشهر من بقيت اسماؤهم تشع في سماء المسرح حتى عصرنا الحاضر من عباقرة اليونان تبرز اسماء : ايسخيلوس (٥٢٥ - ٤٥٦ ق.م) وسوفوكليس (٤٩٦ - ٤٠٦ ق. م) ويوريبيدس (٤٨٤ - ٤٠٦ ق.م)

كان المسرح اليوناني القديم جزءا من طقس ديني. وكان الممثلون كهنة عند ديونيسيس وكانت الاحتفالات المسرحية تتم تعظيما للالهة ، سنوياًاوفي مناسبات فصلية ، على شكل معرض ريفي في مكان مفتوح للسماء والشمس والهواء، حيث تعرض اكثر من مأساة واكثر من ملهاة ؛ على التوالي ، طيلة نهار كامل او حتى اكثر من نهار .

نظر اليونانيون الى العالم على اساس انه وحدة متكاملة ذات اجزاء مترابطة متداخلة ؛ ومن هنا كانت نظرتهم للانسان على اساس انه مقياس لجميع الاشياء ، ومن هنا كانت آلهة اليونان القديمة انسانية بأخلاقها وتصرفاتها ومن هنا كان ابطال المأساة اليونانية ينتقلون من الولادة الى الشباب ثم الى الهرم فالموت ، في صراع دائم وعنيف مع القدر من اجل اثبات ان الانسان هو المقياس ، وان تعلقه بكل ما يحيط حوله من حياة هو الاساس .

مع ظهور الامبراطورية الرومانية على انقاض اليونان العظيمة ، بدأ مسرح ديني جديد . استقت معظم مسرحيات هذه الفترة مادتها من تاريخ الانجيل ، وحياة المسيح منذ الولادة حتى الصلب ، فجاءت صراعا بين الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة وحكايات عن الخلق الاول ، وسير الانبياء ، كسقوط آدم ، وقابيل وهابيل ، وابراهيم واسحق ، وعن سفينة نوح . كان المسرح في هذه الفترة سبيلاً اساسيا لجر الجمهور الى الكنيسة وابراز اهمية الخلاص من الحياة الكونية للصعود الى ملكوت السماء ، وجنان الله ، وانقاذ الروح من السقوط والتردي .

لم يقيض لهذا النوع من المسرح النماء . ومع اطلالة عصر النهضة اندثرت الفكرة الدينية من ورائه ، عاد التأكيد على وجود الانسان ، وكبرياء الفرد ، وامكاناته اللامتناهية ، وظهرت الاشكال الرومانتيكية ، والمسرحية التاريخية .

بدأ زخم هذه المرحلة التاريخية مع سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ . ووصل الى أوجه ، مروراً بالحركة المسرحية في فرنسا وايطاليا واسبانيا ، في القرن السادس عشر ،

وفي العصر الاليزابيثي في انكلترا ، وبالتحديد مع شكسبير . ومع مطلع القرن الثامن عشر سيطر الاتجاه الرومانتيكي ، لغة ومحتوى على الحركة المسرحية ، وبدأت الواقعية في منتصف القرن في التصاعد ، ثم كانت الثورة الرومانتيكية في المسرح في منتصف القرن التاسع عشر.

يتجه المسرح ، مع طبيعة القرن ، التي سادتها النزعة العلمية ، والتفكير العلمي ، الى اعتبار الانسان مشكلة يجب البحث عن حل لها . وتصبح الواقعية ، مع أميل زولا في نهاية القرن التاسع عشر شعار المسرح وغايته الاساسية .

ومنذ مطلع القرن العشرين حتى وقتنا هذا ، خضع المسرح لتجارب ، جديدة ، وانبثقت عن هـــذه التجارب اتجاهات جديدة في المسرح كان لنظريات وفكر داروين ، وفرويد وماركس والوجودية والسريالية ، الاثر الكبير في وجودها ، فمن المسرح التجريبي ، الى المسرح الصغير الى مسرح الخشبة المفتوحـــة الى المسرح الدائري فالمسرح الملحمي الى اللامعقول ومسرح الحادثة والمسرح الوثائقي ومسرح اللامسرحية ، وغير ذلك الكثير .

من خلال هذا العرض الموجز والسريع لتاريخ المسرح وتطوره ، يمكننا القول ان المسرح هو ان نعي الحاضر ، ونفهم الحياة . ولقد أُسيء فهم المسرح ، كما يساء فهم الحياة ، أحبه اناس وكرهه آخرون ، تعلقت به مجموعة وتركته اخرى الى السينما والتلفزيون .

تبقى حقيقة ثابتة وهي ان المسرح هو الفعل والمسرحية هي وساطة هذا الفعل . وهناك فرق كبير بين ان اصنع شيئاً بيدي اقدمه للجمهور ، كأن ارسم لوحة ، او اكتب قصة ، او ان افعل شيئاً ، كأن اتحدث او اتحرك على خشبة المسرح ، او اعزف لحنا واقدمه للجمهور . في الحالة الاولى اقدم العمل ليبقى فترة طويلة مع الجمهور ، اما في الحالة الثانيـــة فأنا اقدمه مرة واحدة ، وسواء أنجحت أم فشلت ، فلن تتاح لي الفرصة لاعادة تقديمه الا في مناسبة ثانية ، وهنا يكمن سر المسرح وتبرز اهميته ، فهو على صلة وثيقة وفورية مع الجمهور ولا يمكن ان يتم من دون الجمهور . عندما اكتب مسرحية اكتبها وحيـداً ، وكتابة نص المسرحية عمل فردي ، اما عندما تمثل هذه المسرحية امام جمهور فأنا اوجد ما يسمى بالمسرح.

الاتصال مع الجمهور هو الغرض الاساسي للمسرح . اعتمد المسرح القديم التقليدي على اثارة العواطف في نفس المتفرج ، اما المسرح الحديث فيحث المتفرج على اتخـاذ قرار . المسرح القديم يحرض الحساسية العاطفية . اما المسرح الحديث فيحفز المحاكمة العقلانية .

ومن هنا فليس دور الممثل ان يخدر جمهوره ، ومن ثم، فعليه هو نفسه ألا يسقط

في حالة خدر، ليست مهمة المسرح ان يخلق الوهم. خلق نقيض الوهم هي مهمة المسرح ، عندما تجلس بين جمهور لتشاهد عرضاً مسرحياً عليك ان تتأكد من انك تشاهد عملا مسرحياً فنياً، وممثلين ، وليس واقعا او ابطالا حقيقيين .

ومن هنا كانت اهمية (برتولت بريخت) واهمية ما أدخله على فن المسرح في القرن العشرين وفي كل اصقاع العالم . فالكاتب المسرحي يعيش عالم يومه ويمسرح مكتشفاته على طريقته . ومن هنا ننتقل الى الانسان الممثل .

ألسنا جميعاً ممثلين نتخذ ادواراً عديدة ، منذ وعينا ، فمن طفل مطيع ، الى طفل مشاكس الى مقلد ، الى طالب الى شاب نزق الى عاشق ثم الى اب ... حتى الطفل الرضيع ، ألا يبكي ليثير الانتباه !..

كلنا نعي اننا نمثل . ألا نقول : دعني اجرب ، ربما استطيع عمل شيء ما .

المحظوظ من اكتشف نفسه وقام بدوره في الحياة ، وقليل الحظ هو ذلك الذي لم يجد دوره الحقيقي او الذي يواجه صعوبة بالغة في اكتشاف دوره .

ثم ، ألسنا جميعاً مخرجين مسرحيين !...

ألا نقول للآخرين : قم بهذا العمل . انجز هذا العمل . تحرك الى هناك احضر شيئاً ما ، راقب خطواتك ، لاترفع او ارفع صوتك ، لم اسمعك ، ماذا تظن انك تفعل ؟ لماذا لا تجرب طريقة اخرى ؟ ...ألا يحاول كل منا ان يظهر الآخرين بالصورة التي يرغبها ، ويجعلهم يفعلون الشيء الذي يريد ، ألسنا جميعا مخرجين مسرحيين عندما نحاول ان نصوغ محيطنا ومجتمعنا طبقاً لأحلامنا ورؤانا؟.

ونحن ايضاً نقاد .نحن نصدر احكاما على ما نرى ونسمع . ربما تكون احكامًا بسيطة : كم هو جميل ، هذا لا يكفي ، عظيم ، تسريحة الشعر تلك جميلة ، الرداء الفضفاض مناسب ، انظر اليها كيف تمسك بالملعقة والسكين ، ذلك الشاب طويل الشعر . نرضى ونغضب ، نقبل ونرفض ونستنكر . نبتسم ونقطب ، تثور اعصابنا وتهدأ .

وربما تصبح احكامنا اكثر تعقيداً : طريقته في الادارة عجيبة ، ليس ديمقراطياً الشخص الفلاني فوقي في معاملته ، لم يستطع حتى الآن ان يعد برنامجاً ، لم يضع حتى الان ورقة عمل لمؤسسته ، كلية الآداب لا تختلف عن غيرها من دوائر المحافظة .

كل هذا ، في الحقيقة ، يصدر عن قناعات ومعايير اكتسبناها من خلال تجاربنا

او من خلال تبنينا تبنياً أعمى لقواعد شرعها آخرون .

ثم ألسنا جميعاً نظارة ؟ نتمتع بأي نوع من انواع النشاطات عندما نقوم بها ، او عندما يشاركنا آخرون ؟

كلنا مشاهدون ، وممثلون ومخرجون ونقاد .. من الولادة الى الموت .. وليس غريباً ان نقرأ عن شكسبير قوله : العالم مسرح .

وهنا لا بد من الاشارة الى مسرح كلية الآداب ، كلية العلوم الانسانية في جامعة تشرين ، فقد تحول مقره الى مقصف للطلاب ، ولا يعني ذلك انه وقف ، او انتهى ، فالمقصف بحد ذاته ، مكان لتجمع الجمهور ، وكل مكان يتجمع فيه الجمهور يمكن ان يؤدي شيئاً من غرض المسرح ، والعمل في المسرح مستمر ، فطلاب كلية الاداب يتدربون على مسرحية يدرسونها في السنة الاولى في قسم اللغة الانكليزية ، ستقدم للجمهور في وقت لاحق من هذا العام.

سمعنا وقرأنا لسوفوكليس ، وغوته ، وفاغنر ، وفولتير ، وموليير ، وشكسبير ، وبرناردشو ، وماياكوفسكي ، ونسمع.ونقرأ الان ليكيت ، وبنتز ، وجينيه، وآرمن وآ لبي ،وويليامز ، هذا اذا عنينا بالاسماء الاكثر رسوخاً في اذهاننا . لم تكن مصادفة ان هؤلاء العظام جميعا نشطوا اساسا في مجال المسرح .

المسرح شيء صنعه الانسان ، ونحن عاجزون عن قول كل شيء عن المسرح لأننا ببساطة عاجزون عن الاحاطة بالانسان . لكننا قادرون على ان نبدأ شيئاً . فالبداية هي النقطة الاولى في انجاز اي شيء ، اما النهاية فتأتي مع نهاية حياتنا الشخصية وليس مع نهاية المسرح الذي لا يمكن ان ينتهي لأنه مادة الحياة ، لانه مادة اساسية ، كالخبز والخمر ، لانه متعلق اساساً بوجود الانسان ، بعلاقته مع اخيه الانسان ، بصراعه من اجل البقاء ، وبعلاقة الانسان الاساسية مع الارض والسماء . ونحن في كلية الآداب بدأنا مسرحاً ، وعلى الرغم من ان اهمية اقامة جسور المسرح ستبدو ثانوية ان لم تعرف المسافة اللازمة لاقامة هذه الجسور، فان جامعة تشرين حريصة على توفير كل جهد لمتابعة هذا المسرح ، لان جامعة تشرين حريصة على الاهتمام بالانسان العربي .

يقول النحاة ان كلمة (مسرح) في اصلها ، مشتقة من فعل (يشاهد ـ لم يظهر) اما (المسرحية) فتأتي من فعل (ينجز) ، يقول شكسبير الذي ملأ الدنيا وشغل الناس ، على لسان (هملت) :

« ليكن رشدك دليلك ؛ ليكن الفعل منسجمًا مع الكلمة ولتكن الكلمة منسجمة مع الفعل » اما نحن ، فسنحاول ان نستفيد من رشد (هملت) ، سنحاول الوصول الى اعلى نسبة من الانسجام .

تشرين الثاني ١٩٧٨